Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 4:4 (1969)

فن التعبير عند الطوسى

للأستاذ صالح عضيمة

أيها السادة العلماء ،

إن دمشق مهد العلم و روض العلماء لتفتخر إذ تكرم اليوم نابغة من نوابغ الفكر و عبقرية خالدة من العبقريات الاسلامية ، فهى لم تبخل فى قديمها و حديثها فى تكريم الأعيان و تجليل العظماء فمن جنتيها الغربية و الشرقية أحمل عطراً شآمياً لأطيب به منشأ الطوسى و مرباه العريق الخالد و من مرقد السيدة العظيمة زينب بنت الإمام إلى مشهد الإمام الرضا بن الإمام أحمل الحنين كله و الشوق كله و أرشّ هنا و هناك على هذا التراب الطاهر المقدس التحيات و التجلات و أسأل ذا الحول و الطول نوامى البركات و شآبيب الخيرات لأهله و ساكنيه ، و اسمحوا لى بعد ذلك أيها السادة العلماء أن أحيّ فيكم هممكم العالية و جهودكم الكريمة الطيبة لاحياء ذكرى رجال العلم و أهل الفكر ، و إننا لنتطلع بلهفة إلى مثل هذه المحافل التى تحى ذخائرنا و تنشر فى الأرجاء والآفاق كنوزنا و تهدى إلى العالم كله نفائسنا، فما بخل الاسلام يوماً على الحضارة العالمية بالعطاء و ما ضنّ المسلمون على الانسانية بالتقديم و الإهداء ، فمن حقهم على العالم أن يعترف بجميلهم و من حقهم على بنى البشر أيضاً أن يقرّوا لهم بالفضل فى حفظ الحضارات و المدنيات عندما كادت تهوى جميعها و تضيع .

و إن المؤتمر الذى يقام اليوم لفقيه من أكابر الفقهاء و مفسر من أئمة المفسرين و أصولى من عظيم الأصوليين و متكلم من المتكلمين يهيب بنا أن نعود إلى عظمائنا الأول و أسلافنا الكبار لنحى لهم الذكرى و المهرجانات فى أخلاقنا و أنفسنا و نعود إلى آثارهم ندرسها و نطالعها

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

بجد و إمعان و نهتم بها كل اهتمام ، فما زالت أكثر هذه الآثار بيننا كالأحياء بين الأموات فهى زادنا فى الدنيا إذا أردنا أن نعيد سير هؤلاء العظماء و هى زادنا فى الآخرة عند ما نرد على الحوض ، و كأنى بروح الطوسى تطالعنا من عل لتصدق هذا القول و تباركه و تحيّيه .

و لقد أردت فى هذه الكلمة المتواضعة المهينة أن يكون لى شرف الاشتراك فى إحياء هذه الذكرى المجيدة أولا و تبيان أمر لم تصره الأقلام إلتفافة واحدة إلا عرضاً و بدون قصد أو تعمد ثانياً ، هذا الأمر الخفى الظاهر بآن واحد هو أدب الطوسى و بيانه فلقد كان فى الأدب و البيان مجلّيا بارعاً و إن لم يتقصدهما أو يسعى إليهما ، و إننى فى مطالعاتى لآثار هذا العبقرى فى الماضى و الحاضر كنت أنتبه إلى هذه الناحية بل كانت هذه الناحية — أعنى الأدب و البيان — تلفتنى اليها و تجذبنى و خاصة فى تفسيره (التبيان) و رأيتنى بعد ملزماً بانصاح هذه الظاهرة البيانية التى تحفل بها آثار شيخنا الطوسى و تنتشر فى تضاعيف جُمَله و عباراته، و نحن نصرف أنه الفقيه والمفسر و المحدث و الأصولى و المتكلم ، فمن أين صار أديباً له بيانه الرائع و أسلوبه الحلو الجميل؟ هذا ما سنبينه بعد أن نأتى على إلمامة موجزة تحكى لنا ظروف الطوسى و عصره ، و علينا أن نضع فى أذهاننا أولا أن من يحمل الأسماء الخمسة المتقدمة المذكورة فى شخصية واحدة فانه يضم إليه أيضا دون عناء اسماً سادساً أو صفة سادسة و هى صفة الأديب الفنان .

فاذا علمنا أن وفاة الشيخ الطوسى كانت سنة ستين و أربعمائة "٤٦٠" للهجرة علمنا أنه عاش فى أوج الازدهار الأدبى عند العرب و أدرك مرحلة نضج العلوم و الفنون التى وردت إلى اللغة العربية من أنحاء شتى و من ألوان متعددة ، و نرى من الحق أن نشير إلى هذه المرحلة إشارة عجلى لنبين كيف أتيح للشيخ أن يحصل هذه المقدرة العلمية البيانية .

بحث ''آدم متز'' فى كتابه ''الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع'' بدقة و استقصاء عن نضج علوم العصر و فنونه و عن وصولها إلى القمة و بيّن أن الحضارة العالمية كانت تتجه كلها إلى الحضارة الاسلامية العربية لتستعين بها وتنهل منها ، و كذلك فان الحضارات الأولى الهندية و اليونانية و الفارسية تلاقت كلها فى الاسلام و عند المسلمين فى هذا العصر و يلفت النظر كثيراً بحثه عن التفوق الأدبى الذى بلغ الحد الأقصى من الكمال ، فالشعر قد نضج كل النضوج ، و كذلك النثر فلم يكن أقل من صاحبه الشعر فى النضج أيضا فى فنونه المتعددة و صناعاته المختلفة ، و هذه كلها كان يحتاج إليها من يشتغل بأى علم أو بأى فن ، فان كان مفسراً و إن كان فقيهاً و إن كان متكلماً فلابد أن يعرف أوجه البيان و يقرأ كتب الأدب و يطلع على الآثار النثرية ، فقد كان من المتكلمين من هو شاعر و كان من الفقهاء الكاتب الفنى المجيد و كان أيضاً من المفسرين الأديب القدير و حسبنا أن ننظر فى كتب المفسرين و الفقهاء و المتكلمين لنرى أنها ممتلئة بشواهد الشعر و طرائف النثر ، محمّلة بالبيان النضر ، ظاهرة بأجمل أسلوب و ألطف مظهر .

و لما كان القرن الرابع و شطر كبير من القرن الخامس زمان نتاج الثقافات التى بدأتلاقحها فى أواخر القرن الأول فقد أخذ البيان يستهوى قلوب الفئة المثقفة ، و صارت العودة إلى البيان العربى الأول أمراً طبيعياً لأن الناس تعبوا من علوم العقل و رأوا فى الرجوع إلى البيان تنفياً عن هذا التعب الذى استغرق أكثر من قرنين ، و لو لا ظروف التشتت و الانقسام و التفرقة التى أحاطت بالمجتمع الاسلامى و العربى فى ذلك الزمان لعاد هذا البيان إلى مركزه الأول و لما هوى فى عصور الإنحطاط و عاش فى ظلام التصنع و التكاف أو ابتعد عن السهل الممتنع الذى عرف به من قبل ، و صرنا نرى أن البيان كله و الأدب كله ليس فى شعر الشاعر أو كتابة الكاتب و إنما فى هذه الموسوعات

الحديثية و الأدبية و اللغوية التى خلّدت آثار الأولين و حفظت اللغة و أكثر ما ألف فى هذه اللغة.

من هنا نعلم أن عصر الشيخ الطوسى كان عصر حضارة و تفوق و علم وكذلك كان عصر نوابغ و علماء ، فكان لابد له ، و هو العبقرى أن يدخل كل بيت و يتصرف إلى ما فيه عند ما كان فى سن التلقى و التعلم عند شيوخه و أساتذته ، و كان كل شئ يلقى إليه باللغة العربية ، و كان اساتذته من فصحاء العصر و الناطقين الخالدين، فقد درس الفقه و الأصول و التفسير و علم الكلام بأعجز بيان و أبدع أسلوب ، فكان لابد لهذا أن يؤثر فى نفسه و أن ينعكس هذا التأثير فى مؤلفاته أيضاً كما سنبين بعد ذلك ، و قد ملك شيخنا الطوسى رهافة فى الحس جعلته يختار عباراته مثقلة بالفن محمّلة بالبيان لا يشعر معها القارئ حتى فى أعقد المشكلات الأصولية أو الكلامية إلا بالسهولة و الراحة و اذا وجد هنالك صعوبة أو فجاجة فلأنها طبيعة الموضوع و أصله لا لأن بيانه و أسلوبه صعب أو فج ، و نحن هنا لا نريد أن نتعجل الأمور فسنأتى على بسط ذلك كله فى الصفحات المقبلة ، ثم إن الشيخ الطوسى لم يكن فى طوال سنّى دراسته و غيرها يقصد إلى تعلم الأدب و البيان و ما يتصل بهما قصداً لأنه لم يكن يفكر فى أن يكون أديباً كالجاحظ و التوحيدى و الصاحب بن عباد ، و لم يكن يقرأ كتب الأدب شعره و نثره لينظم الشعر أو ليخرج إلى الناس بكتاب كالبخلاء أو الإمتاع و المؤانسة ، و لكن كان يتعرف على الأدب ليستعين به فى توضيح مشكلات الفقه و الأصول و الكلام و ليستدل على صحة هذه القضية باللغة و ما قصد إليه الشاعر فى إيراد هذه الكلمة و تلك و ما عناه الراجز فى رجزه أو ما يدل عليه المثل السائر الجارى ، و أيضا فاذا رفضنا القول بأن الشيخ الطوسى كان يقرأ كتب الأدب و يطلع على آثار الأدباء فاننا لا نستطيع أن نرفض أو ننكر أن علوم الفقه و الأصول و الكلام لم يكن فيها

البيان أو لم تكن فيها اللغة و الأدب الممتع ، ثم لا نستطيع إلا أن نعترف أن القرآن معجزة البيان الخالد و أن كل ما ألف حول هذا القرآن الكريم كان البيان يزدحم فيه إزدحاماً ، و كان الجمال الأدبي يحيط به من كل الأنحاء ، و كان الشيخ الطوسى علماً فى هذه العلوم تشهد له آثاره و مؤلفاته و أيضا تلامذته و النصفة من المؤلفين ، و كما تشهد له مؤلفاته أيضا بأنه كان فى الطبقة الأولى من رجال الفن و البيان و إن لم يكن تقصّد ذلك و سعى إليه .

و لو لا بيانه فيما كتب و ألف لما توفرت له الدقة و لما استطاع أن يحصل هذا التفوق و الشهرة اللذين أحرزهما حتى على أساتذته، و لو لا طول باعه فى اللغة و علومها لما كان طويل الباع فى التفسير و الفقه والأصول ، و أيضاً لولا أسلوبه لما استطاع أن يحبّب الفقة و علوم الدين للناس و ينشر هما فى كل مكان ، فالحقائق المبثوثة فى كتبه كلها لاقت الحبّ و الميل إليها من كثير من الناس لأن الحقيقة جميلة بذاتها و لأن المظهر الذى ظهرت به كان محبّباً و قريباً من القلوب ، و إننا لانشك بأن عبارة علم الكلام أو علم الأصول تبقى محددة واضحة لا تحتاج إلى صقل و تهذيب أو تزيين و تنميق ، فهى عبارة مهمتها أن تؤدى المعنى دون نقص أو زيادة ، و كذلك علم الفقه و كذلك علم التفسير ، و نحن لا نلوم المتكلمين و المفسرين و الفقهاء إذا جاءت أساليبهم خالية من الزخرفة و الزينة و البيان لأن هذا خارج عن مهمتهم بل إنه لا يتصل بكتابتهم و فيما يؤلفون ، و إذا وجد فانه سيكون زيادة لا يقدم أو يؤخر من إيصال المعنى إلى الأذهان بل ربما يضلّل فى فهم المعانى إذا هو وجد عند الفقيه أوالأصولى أو المتكلم أو المفسر ، و نحن لا نقصد من البيان فى هذه العلوم إلى الفنية و التزيين والزخرفة و إنما نقصد إلى الدقة فى استعمال الكلمات و وضعها فى مواضعها الصائبة اللائقة و إلى الإيضاح كل الإيضاح ، و حسب البيان أن تكون

صفته الدقة و الإيضاح ، و لو أننا وضعنا أمامنا مؤلفات الطوسى نريد أن نتعرف البيان و نشاهده لكانت هاتان الصفتان — أعنى الدقة و الإيضاح — غالبتين على عباراته و جمله ، ثم إن هاتين الصفتين لا تأتيان بيسر و سهولة ، بل لابد لهما من سعة كبيرة فى الإطّلاع على العلوم و فهم دقيق لهذه العلوم ، و الفهم وحده لا يكفى بل لابد من الانفعال فى كل ما قرأ و فهم ، و فى كل ما يكتب و يؤلف.

و قبل أن أقدم الشواهد من النصوص و أدلّل على صدق قولى بالأثر أريد أن أقول كلمة فى تفسير الطوسى الكبير لأنه يكاد يكون كله شاهداً على حسن بيانه ، فهذا التفسير المعروف بـ ''التبيان'' لم يخل منه سبب من أسباب البيان ، نجد فيه البيت الشعرى الجميل ، و المثل السائر اللطيف و القصة الفنية المعبرة و مباحث فى اللغة و النحو و طرائف من الأدب لم يوردها شيخنا للهو و اللعب و إنما استعان بها على تأييد فكرة أو إيضاح معنى ، يضاف إلى ذلك أيضا أن عبارة الطوسى لها حلاوتها و وقعها و تأثيرها فى النفس لأنها تتدخر طاقة كبيرة من انفعال صاحبها و إحساسه و هذا الانفعال العميق هو وجود المفسر و أصله الذى تجرد عن كل محسوس ليستغرق فى جمال القرآن و يغيب فى أنوار معانيه التى لا تعرف النهاية ، فمن كل جوانبه هو طيب حلو يأخذ الإنسان عن نفسه و يغيب به حيث يغيب حتى إنه فى تفسير آيات الأحوال الشخصية من زواج و طلاق و مواريث و ما إليها لا ينسى ما فى الآيات من جمال و إبداع بل يشير إليها من حيث اللغة و السبك و الأسلوب و الفقه و يدلل على حكمة الإسلام فى تحريم هذا و تحليل ذلك ببيان لا تنقضى لـذّته ولا تنتهى روعته ، و إن قولى هذا مهما امتد و طال يبقى دون ما قاله إمام المفسرين الأستاذ الطبرسى فى كتابه مجمع البيان عند ما يعرض لذكر ''التبيان'' و صاحبه : ''إنه الكتاب الذى يقتبس منه ضياء الحق و يلوح عليه رواء الصدق ، و قد

تضمن من المعانى الأسرار البديعة و احتضن من الألفاظ اللغة الوسيعة و لم يقنع بتدوينها دون تبيينها و لا بتنسيقها دون تحقيقها ، وهو القدوة أستضئ بأنواره و أطأ مواقع آثاره''. فهذه شهادة إمام فى البيان و ثقة فى التفسير و الفقه فى إمام البيان و الفقه و الأصول ، و لو كتب الشيخ الطبرسى أمثال هذه الشهادة الصفحات الطوال ما تعدى الحق الصراح فى ذلك و لما تجاوز واقعاً إلى خيال أو تخيل ، و أمثال هذه الشهادة كثير أيضاً فهذا العلامة السيد مهدى بحر العلوم فى (الفوائد الرجالية) يقول : ''أما التفسير فله فيه كتاب التبيان الجامع لعلوم القرآن ، و هو كتاب جليل كبير عديم النظير فى التفاسير و شيخنا الطبرسى إمام التفسير فى كتبه إليه يزدلف و من بحره يقترف ، و فى صدره كتابه الكبير بذلك يعترف'' و رغم أن الشيخ المحقق محمد بن ادريس العجلى المتوفى سنة ٥٩٨ هـ كان كثير الوقائع مع شيخ الطائفة دائم الرد على معظم مؤلفاته فهو يقف عند كتابه ''التبيان'' و يعترف له بعظم الشأن و استحكام البنيان ، و لو تكلفنا إيراد أمثال هذه الأقوال لأثقلنا على أنفسنا و أعجزناها ، فمن الخير أن ننتقل إلى التفسير لنتلمّس بيان شيخنا الطوسى و نتذوق عبارته و نستمتع بسعة علمه و دقة إطلاعه و فنيته فى العرض و التأليف و التحقيق، و قد راعينا فيما اخترناه هنا من الأمثلة القرآنية تعدد موضوعات الآيات و ايراد ما يناسب بحثنا من التفسير.

قال الله تعالى : ''و إذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء و نحن نسبح بحمدك و نقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون(١).'' فا لشيخ الطوسى يبدأ باللغة فى تفسيره فيشرح الغريب و يدلل على صحة ما يذهب إليه بشواهد من الشعر و النثر وأحيانا يبدأ بالمعنى ثم الإعراب ثم اللغة و أخيرا التفسير،

١- البقرة - ٣٠ -

و هو إن قدّم و أخّر فى الترتيب فانه يذكر هذه الأنواع فى كل آية من آيات القرآن الكريم.

و قوله(١): ''إنى جاعل'' أى فاعل و خالق ، و هما يتقاربان ، قال الرمانى : حقيقة الجعل : تصيير الشئ على صفة ، و الإحداث حقيقة : إيجاد الشئ بعد أن لم يكن موجوداً ، و الخليفة : الفعيلة من قولهم خلف فلان فلاناً فى هذا الأمر : إذا قام مقامه فيه بعده لقوله تعالى : ''ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم.....'' يعنى بذلك أبدلكم فى الأرض منهم فجعلكم خلفاً فى الأرض من بعدهم ، و سمى الخليفة خليفة من ذلك لأنه خلف من كان قبله فقام مقامه ، و قال قوم : سمى الله تعالى آدم خليفة لأنه جعل آدم و ذريته خلفاء الملائكة لأن الملائكة كانوا سكان الأرض ، و قال ابن عباس : إنه كان فى الأرض الجن فأفسدوا فيها و سفكوا الدماء فأهلكوا فجعل الله آدم و ذريته بدلهم و قال الحسن البصرى : إنما أراد بذلك قوماً يخلف بعضهم بعضاً من ولد آدم الذين يخلفون أباهم آدم فى إقامة الحق و عمارة الأرض ، و قال ابن مسعود : أراد أنى جاعل فى الأرض خليفة يخلفنى فى الحكم بين الخلق ، و هو آدم و من قام مقامه من ولده ، و قيل إنه يخلفنى فى إنبات الزرع و إخراج الثمار و شق الأنهار ، و قيل إن الأرض أراد بها مكة و قوله : ''أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء'' و روى أن خلقا يقال لهم الجان كانوا فأفسدوا و سفكوا الدماء فبعث الله تعالى ملائكة أجلتهم من الأرض ، و قيل إن هؤلاء الملائكة كانوا سكان الأرض بعد الجان فقالوا : يا ربنا أتجعل فى الأرض من يفسد فيها و يسفك الدماء على وجه الاستخبار منهم و الاستعلام على وجه المصلحة و الحكمة لا على وجه الإنكار ، فانهم قالوا إن كان هذا كما ظننا فعرفنا وجه الحكمة فيه ، و قال قوم : المعنى فيه أن الله أعلم الملائكة أنه

---

١ - انظر التبيان ص ١٢٨ وما بعدها —ط— النجف .

جاعل فى الأرض خليفة و أن الخليفة فرقة تسفك الدماء و هى فرقة من بنى آدم فأذن الله للملائكة أن يسألوه عن ذلك و كان إعلامهم إياهم هذا زيادةً على التثبت فى نفوسهم أنه يعلم الغيب فكأنهم قالوا : أتخلف فيها قوماً يسفكون الدماء و يعصونك و إنما ينبغى أنهم إذا عرفوا أنك خلقتهم أن يسبحوا بحمدك كما نسبح و يقدسوا كما نقدس و لم يقولوا هذا إلا و قد أذن لهم ، لأنهم لا يجوز أن يسألوا ما لا يؤذن لهم فيه .

و الملائكة المذكورون فى الآية ، قال قوم : هم جميع الملائكة و قال آخرون و هو المروى عن ابن عباس و الضحاك — إنه خطاب لمن أسكنه من الملائكة الأرض بعد الجان و قبل خلق آدم . و هم الذين أجلوا الجان عن الأرض ، و قال قتادة فى قوله : ''أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء'' و قد علمت الملائكة من علم الله أنه لا شئ عند الله أكبر من سفك الدماء و الإفساد فى الأرض قال الله تعالى : ''إنى أعلم ما لا تعلمون'' من أنه سيكون من الخليفة رسل و أنبياء و قوم صالحون ، و أقوى هذه الوجوه قول من قال : إن الملائكة إنما قالت : ''أتجعل فيها من يفسد فيها'' على وجه التعجب من هذا التدبير لا إنكاراً له ، و لكن على وجه التألم و التوجع و الاغتمام و الاستعلام لوجه التدبير فيه فقال : ''إنى أعلم ما لا تعلمون'' من وجه المصلحة فى خلقهم و ما يكون منهم فى الخير و الرشد و العلم ، و حسن التدبير و الحفظ و الطاعة ما لا تعلمون ، فان قيل الملائكة بما عرفت ذلك إذ لم يمكنها أن تستدرك ذلك بالنظر و الفكر ؟ قلنا : قد يجوز أن لا يكون خطر ببالها ذلك إلا عند ما أعلمهم الله ، فلما علموا ذلك فزعوا إلى المسألة عنه لأن المسألة لمن يتوقع سرعة جوابه أو يوثق بعلمه و خبره يقوم مقام النظر و الفكر و قوله : ''أتجعل فيها من يفسد فيها'' يريدون من ولد آدم الذين ليسوا أنبياء و لا أئمة معصومين فكأنه قال تعالى : إنى جاعل فى الأرض خليفة ، يكون له ولد و نسل يفعلون كيت و كيت

فقالوا : ''أتجعل فيها من يفسد فيها'' يريدون الولد ، و قد بينا أن الخليفة من يخلف من تقدم جماعة كانوا أو واحداً ، فلما أخبر الله تعالى الملائكة أنه يخلف فى الأرض عباداً هم آدم و ولده و يكون خليفة لمن تقدمهم من الجن أو غيرهم قالوا ما قالوا ، و يحتمل أن يكون قوله : ''من يفسد فيها'' يريدون البعض لا الكل كما يقال : بنو شيبان يقطعون الطريق ، و يراد بعضهم دون جمعهم''.

و إنني لم أورد هنا إلا اليسير من شرح هذه الآية و تفسيرها ، فجملة تفسيرها يكون وحده محاضرة أو مقالا ، و فيما أوردناه رأينا السلاسة و السهولة فى التعبير و ذكر الوجوه المتعددة للآية الواحدة و المعانى الكثيرة للآية أو لجزء من الآية فالقارئ لايغادر آية إلا بعد أن يتزود بفوائد عدة و يطلع على الجديد و الغريب فى التحليل و التدقيق و التفسير ، و من الخير أن نستزيد من الشواهد أيضا فنأتى بهذه الآية : ''و إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين(١)'' و شرحها(٢) : ''هذا وصف للذين آمنوا من هؤلاء النصارى الذين ذكرهم الله أنهم أقرب مودة للمؤمنين بأنهم إذا سمعوا ما أنزل الله من القرآن يتلى ''ترى أعينهم تفيض من الدمع'' يعنى من آمن من هؤلاء النصارى ، قال الزجاج و أبو على : تقديره ، منهم إذا سمعوا و لم يذكر ''منهم'' لدلالة الكلام عليه و ما وصفهم به فيما بعده ، و فيض العين من الدمع امتلاؤها منه سيلاً و منه فيض النهر من الماء و فيض الإناء و هو سيلانه عن شدة امتلاء و منه قول الشاعر :

ففاضت دموعى فظّل الشؤ ن إمّا وكيفاً و إما انحدارا

و خبر مستفيض أى شائع و فاض صدر فلان بسره ، و أفاض القوم من عرفات إلى منى إذا دفعوا ، و أفاض القوم فى الحديث إذا اندفعوا

١- المائدة — ٨٦ ،
٢- انظر التبيان ج ٤ ، ص ٣—٤ ، ط — النجف

فيه ، والدمع الماء الجارى من العين و يشبه به الصافى ، فيقال دمعة ، و المدامع : مجارى الدمع، و شجة دامعة تسيل دماً، و قوله : ''مما عرفوا من الحق'' ، أى مما علموه من صدق النبى (ص) وصحة ما أتى به ''يقولون ربنا'' فى موضع الحال و تقديره قائلين ''ربنا آمنا'' أى صدّقنا بما أنزلت ''فاكتبنا مع الشاهدين'' قيل فى معناه قولان :

أحدهما — فاجعلنا مع الشاهدين فيكون بمنزلة ما قد كتب و دوّن ،

و الثانى — فاكتبنا معهم فى أم الكتاب و هو اللوح المحفوظ ، و ''الشاهدين'' قال ابن عباس و ابن جريج : مع أمة محمد (ص) الذين يشهدون بالحق من قوله تعالى : ''وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس'' و قال الحسن هم الذين يشهدون بالإيمان. و قال أبو على الذين يشهدون بتصديق نبيك و كتابك''.

و نلاحظ الشيخ الطوسى فى تفسير هذه الآية الكريمة : ''إن فى خلق السموات و الأرض و اختلاف الليل و النهار لآيات لأولى الألباب''(١) ينسى تقسيماته المعهودة من لغة و إعراب و معنى و تفسير ، بل يغيب فى هذه الآيات الالهية التى تدل على الله جل و علا و كأنه يستحضرها فى ذهنه فيغنى عن ذاته و يصير فى المطلق و اللانهاية فيشرح الآية هكذا دون مقدمات(٢) ''فى هذه الآية دلالة على وجوب النظر و الفكر و الاعتبار بما يشاهد من الخلق و الاستدلال على الله تعالى و مدح لمن كانت صفته هذه و رد على من أنكر وجوب ذلك و زعم أن الإيمان لايكون إلا تقليداً و بالخبر لأنه تعالى أخبر عما فى خلق السموات و الأرض و اختلاف الليل و النهار من الدلالات عليه و على وحدانيته لأن من فكر فى السموات وعظمها و عجائب ما فيها من النجوم و الأفلاك و مسير ذلك على التقدير الذى تسير عليه و فكر فى الأرض و ما فيها من ضروب

١- آل عمران — ١٩٠،

٢- التبيان - ج ٣ ، ص ٧٨— ٧٩— ٨٠ ، ط النجف.

المنافع و فى اختلاف الليل و النهار و مجيئهما بالأوقات و الأزمنة التى فيها المصالح و اتساق ذلك و انتظام بعضها إلى بعض و حاجة بعضها إلى بعض حتى لو عدم شئ فيه لم يقم ما سواه مقامه علم أن ذلك لا يكون إلا من مدبر قادر حكيم عليم واحد لأنه لو كان قادراً و لم يكن عالماً بالعواقب لما أغنت القدرة شيئا ، و لو كان عالماً غير حكيم فى فعله لما أغنى العلم شيئاً و لو كانا اثنين ما انتظم تدبير و لا تم خلق و لعلا بعضهم على بعض ، كما قال تعالى : ''لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا'' فكيف يُنسب إلى الفقر من كان جميع ما فى السموات و الأرض بيده ، أم كيف يكون غنياً من كان رزقه بيد غيره إذا شاء رزقه و إذا شاء حرمه ، و يدل على أن خالق الجسم لا يشبهه لأنه لو أشبهه لكان محدثاً مثله و يدل على أنه قديم لأنه لو كان محدثا لاحتاج إلى محدث و لأدى ذلك إلى ما لا يتناهى و يدل أيضاً على أنه قادر على جميع الأجناس لأنه من قدر على الجسم يقدر على سائر الأجناس ، و وجه الدلالة من خلق السماوات و الأرض على الله هو أن الانسان إذا فكّر و رأى عظمها و ثقل الأرض و وقوفها على غير عمد يقلها و حركة السموات حولها لاعلى شئ يدعمها علم أن الممسك لذلك هو الذى لا يشبه الأجسام و لا المحدثات لأنه لو اجتمع جميع الخلق على أن يمسكوا جسماً خفيف المقدار و يقلوه فى الجو من غير أن يدعموه لما قدروا عليه فعلم حينئذ أن الذى يقدر عليه مخالف لجميع الأشياء و علم أيضا أنها لو كانت السموات و الأرض معتمدة على غيرها لكان ذلك الغير يحتاج إلى ما يعتمد عليه و فى ذلك إثبات ما لا يتناهى من الأجسام و ذلك محال . . .''

و قد لاحظنا فى تفسير هذه الآية أن أسلوب الشيخ الطوسى و إن غلبت عليه النزعة الفكرية الفلسفية فقد ظل محتفظا برونقه و سلاسته و لم يغادر الوضوح إلى الالتواء و التعقيد ، و سنكتفى بايراد

سورة الإخلاص و قسم من تفسيرها لننتقل بعد إلى مزايا البيان عند النابغة الطوسى.

قال تعالى: ''قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد''. '' و هذا أمر من الله تعالى لنبيه (ص) أن يقول لجميع المكلفين ''هو الله'' الذى تحق له العبادة ''أحد'' و معناه واحد، فقوله ''هو'' كناية عن اسم الرب، لأنهم قالوا ماربك؟ قال هو الله أحد، و قال الكسائى ''هو'' عماد، و قوله ''الله'' ابتداء و خبره (أحد) و أنكر الفراء أن يكون العماد مستأنفاً، و أصل (أحد) وَحِد فقلبت الواء همزة. كما قيل: و ناه و أناه لأن الواو مكروهة أولا، و قد جاء وَحِد على الأصل قال الشاعر:

كان رحلى و قد زال النهار بنا بذى الجليل على مستأنس وَحِد

و حقيقة الوحد لا ينقسم فى نفسه أو معنى صفته، فاذا أطلق أحد من غير تقدم موصوف فهو أحد نفسه فاذا جرى على موصوف فهو أحد فى معنى صفته، فاذا قيل الجزء الذى لا يتجزأ واحد فهو واحد فى معنى صفته، و إذا وصف تعالى بأنه أحد فمعناه أنه المختص بصفات لا يشاركه فيها غيره من كونه قديماً و قادراً لنفسه و عالماً و حياً و موجوداً كذلك، و أنه تحق له العبادة لا تجوز لأحد سواه و لا يجوز أن يكون (أحد) هذه هى التى تقع فى النفى لأنها أعم العام على الجملة أحد، و التفصيل، فلا يصلح ذلك فى الايجاب، كقولنا ما فى الدار أحد، اى ما فيها واحد فقط و لا أكثر، و يستحيل هذا فى الايجاب، و فى قوله ''الله أحد'' دليل فساد مذهب المجسمة، لأن الجسم ليس بـ(أحد) إذ هو أجزاء كثيرة و قد دل الله بهذا القول على أنه أحد، فصح أنه ليس بجسم...''(١)

هذه النماذج المتعددة المتلونه من تفسير شيخنا الطوسى أظهرت

---

(١) نظر التبيان ج ١٠، ص ٤٢٠.

بوضوح شخصيته الفنية و الأدبية و نحن لم نكثر من إيراد النماذج لأن لكل واحد منها صفة تميّزه عن النموذج الآخر، و لو جئنا بكثير من النماذج لظل التمييز قائماً بينها لصفاتها المتباينة. وماذلك إلا لأن المفسّر تحكّم فى الكلمة العربية و جرت فى عروقه قبل أن تجرى على لسانه أو قلمه فأنبتت الشجرة التى تؤتى أكلها كل حين.

و أما مزايا البيان فالانسان لا يحتاج فى استنباطها إلى جهد كبير لأنها ماثلة فى كل ما كتب شيخنا الطوسى و لأنها أيضا هى التى تلّح على القارئ فى كل صفحة بل و فى كل سطر بل و فى كل جملة و فيما مرمن هذه الكلمة ذكرنا عرضاً بعض مزايا بيانه و نذكر الآن المزايا الأخرى ، فالايضاح و الدقة و السلاسة تقدم ذكرها و لا سبب لايرادها ثانية لو لا أننا سنشير إلى أن لغة الفقهاء قلما اجتمت فيها هذه الصفات الثلاثة ، و لا عيب إذا لم تجتمع لأن الفقيه يشغل بمسائل أشد أهمية فلا يلتفت إلى حسن البيان مقدار التفاته إلى حل المشكلات الفقهية أو تبيان خطأ أو ترجيح رأى على آخر ، و لكن الطوسى سَلِمت له الرفعة فى الفقه و حسن البيان و التبيان فى لغته ، و جاء أسلوبه بسيطاً يلطف من خشونة بعض المسائل الفقهية أو الأصولية أو الكلامية ، و قد عرف أبو حنيفة و الشافعى ببيانهما فى بحث المسائل الفقهية وكانا مثلاً يضرب فى حسن البيان ، و فى رأينا أنهما لم يتفوقا على شيخنا الطوسى فى هذه الناحية ، و المقارنة بين الآثار تظهر صحة هذا الرأى لمن أراد ذلك.

و أيضا فكتابة الطوسى تتصف بالتنظيم و الترتيب فهو عند ما يعرض لبحث المسائل الفقهية أو الأصولية يسعى جهده لكى لا تتسرب إليه فوضى تقديم أفكار و تأخير أخرى ، بل يرتب أفكاره ترتيباً لائقا و ينظم مسائله تنظيماً ممتازاً لا يقدر القارئ المتعلم أن يضيع أو يحرم من الاستفادة ، و لا يستطيع العالم الناقد أن يطعن لأنه لا يرى تشويشاً

و لا اضطرابا ، و إذا أراد الفقيه الخبير أن يضيف أو ينقص أو يرد مسألة و يرجح قضية على أخرى فان التنظيم و الترتيب يساعدانه فى ذلك كثيراً ، و إلى جانب هذه الميزه فان استقصاء الموضوع من كل جوانبه الفرعية و الرئيسية ميزة تشمل كل ما كتبه الشيخ الطوسى ، و هو عندما يتناول مسألة بالبحث لا يترك جانباً من جوانبها إلا بعد أن يأتى عليه تحليلاً و تحقيقاً و تدقيقاً فى الشرح و التفسير و المقايسة بين المشابهات و المطابقة بين المماثلات ، و هذه أمر عجيب تعمدت أن أصرف وقتاً فى ملاحقته و تتبعه فى أكثر ما ألف الطوسى فاذا بى أراه فى كل كتاباته و مصنفاته و أرى أيضاً أنه لا يأتى بالكلمات أو الجمل دون أن يحقق فى بلاغتها و دقتها بيّناً واضحاً حتى تظهر له لياقتها و ملائمتها للاستعمال فيستعملها فى مكانها استعمالا يضيف إلى جمالها جمالا ، فهو يختار اختياراً و ينتقى انتقاءاً و حسبه أن يكون فى الاختيار و الانتخاب أديبا ، فقد ذكروا أن أبا تمّام الطائى فى حماسته أشعر منه فى شعره و ما ذلك إلا لحسن اختياره و انتقائه من الشعر العربى القديم ، و الإنتخاب و الانتقاء يدلان على جمال الذوق أو فساده إن فى الشعر أو النثر أو فى غيرهما من أمور الحياة .

و يتفرد ''تبيان'' الطوسى بمزيتين قد لا نرى لهما أثراً فى بقية مؤلفاته ، و هاتان المزيتان هما الرصف المتتابع للعبارات الممتلئة بالمعانى الدقيقة حتى ليخيل للقارئ أنه أمام كتاب أدبى ، و الثانية الحس النفسى المتدفق و الشعور الباطنى العميق لأسرار آيات الكتاب الكريم ، و لا عجب إذا رأينا هاتين المزيتين فى التفسير لأن القرآن فيه غيب الغيوب و معجز التأويل و التنزيل و التحليل ، و لا عجب أيضا فالطوسى عبقرى عظيم فى نفسه كل استعداد لتقبل الإشراق و عكسه على من دونه ، فهو عند ما يقرأ الآية أو يقف عندها يستغرق فيها ، وينسى عند جمالها و جلالها نفسه و من حوله من الكائنات

و يكتب مما يحسه و يشاهده من جمال الحقيقة ، و يطفر قلمه فيسيل إبداعاً و إعجازاً قلّما توفّرا لمفسر آخر من المفسرين الأعلام، و لو كان موضوع كلمتى يتعلق بالتفسير عند الطوسى لوجدت مجالا كبيراً للمقارنة بينه و بين الطبرى أو الرازى أو الزمخشرى أو النفسى و غير هم من رجال التفسير ، و لأظهرت بكل وضوح و بساطة أن هذا المفسر الكبير و الفقيه العلم قد أمات الشيطان فى نفسه و أضعف الحس المادى لكى يتفرغ لاستقبال تجليات الله و إشراق أنوار الحقيقة العظمى على ذاته فلا ترى بينه و بينها عائقاً و لا ترى عند غيره هذا الاستعداد الذى تراه عنده و من يقرأ تفسيره لآية النور التى تدل على قدرة القادر و جماله و جلاله يرى الشيخ الطوسى و قد أصبح رمزاً فى الوجود و خيالا يلوح من بعيد و ظلا للحقيقة الأحدية التى يقوم كل شئ بسرها و روحها .

ويكاد موضوعى الآن ينحصر فى تفسيره ''التبيان'' لكننى سوف أخرج إلى كتبه الأخرى لأدلل أيضاً على بيانه فى الفقه و الحديث ، و فى هذين الموضوعين لا أقدر أن أطيل - لأن مادة الموضوع تفرض علىّ الإختصار كل الإختصار ، و قد يقول قوم إن فقهه و حديثه و أصوله لا علاقة لها بالبيان أما أنا فأقول إن العلاقة واضحة و هذا النص من كتابه ''المبسوط'' يشهد بذلك : ''البكاء ليس به بأس - أما اللطم و الخدش و جز الشعر و النوح فانه كله باطل محرّم إجماعاً ، و قد روى تخريق الثوب على الأب و الأخ و لا يجوز على غيرهم ، و كذلك يجوز لصاحب الميت أن يتميز من غيره بإرسال طرف العمامة أو أخذ مئزر فوقها على الأب و الأخ فأما على غيرهما فلا يجوز على حال (١)'' و هذا النص أيضاً : ''والأنفال فى كل أرض خربة باد أهلها ، و كل أرض لم يوجف عليها بخيل و لا ركاب أو سلم أهلها طوعاً بغير قتال ، و رؤوس الجبال و بطون الأودية و الآجام والأرضون الموات التى لا أرباب لها -

(١) المبسوط : ج ١ ص ١٨٩ - فى أحكام الجنائز.

و صوافى الملوك و قطايعهم التى كانت فى أيديهم من غير جهة الغصب و ميراث من لا وارث له ، و له من الغنائم قبل أن يقسم الجارية الحسناء و الفرس الفاره و الثوب المرتفع و ما أشبه ذلك مما لا نظير له من رقيق أو متاع(١)'' - و نص آخر من كتاب النهاية : ''و موضع السجود من قصاص شعر الرأس إلى الجبهة ، أى شئ وقع منه على الأرض فقد أجازه ، فان كان فى جبهته دمّل أو جراح لم يتمكن من السجود عليه ، فلابأس أن يسجد على أحد جانبيه ، فان لم يتمكن سجد على ذقنه - و قد أجازه ذلك - و إن جعل لموضع الدمل حفيرة و وضعه فيها لم يكن به بأس و لا يجوز أن لايمكن جبهته من الأرض فى حال السجود مع الاختيار''(٢)

و فى نص آخر نأتى به من مقدمة كتابه ''تهذيب الأحكام'' يتجلى لنا الطوسى كاتباً فذاً من كتاب العربية و هو هذا(٣) : ''سمعت شيخنا أبا عبد الله أيده الله يذكرأن أبا الحسين الهارونى العلوى كان يعتقد الحق و يدين بالإمامة فرجع عنها لما التبس عليه الأمر فى اختلاف الأحاديث ، و ترك المذهب و دان بغيره لما لم يتبين له وجوه المعانى فيها ، و هذا يدل على أنه دخل فيه على غير بصيرة و اعتقد المذهب جهة التقليد لأن الاختلاف فى الفروع لا يوجب ترك ما ثبت بالأدلة من الأصول ، و ذكر إنه إذا كان الأمر على هذه الجملة فالإشتغال بشرح كتاب يحتوى على تأويل الأخبار المختلفة و الأحاديث المتنافية من أعظم المهمات فى الدين و من أقرب القربات إلى الله تعالى لما فيه من كثرة النفع للمبتدئ و الريّض فى العلم و سألنى أن أقصد إلى رسالة شيخنا أبى عبدالله أيده الله تعالى الموسومة (بالمقنعة) لأنها شافية

---

(١) المبسوط : ج ١ ص ٢٦٣ - فى ذكر الأنفال ،
(٢) النهاية : ج ١ ص ٩٤ ، ط جامعة طهران - كتاب الصلاة ،
(٣) تهذيب الأحكام : ج ١ ص ٢- ٣- ٣- ٤- ط - النجف.

فى معناها كافية فى أكثر ما يحتاج إليه من أحكام الشريعة و أنها بعيدة من الحشو ، و أن أقصد إلى أول باب يتعلق بالطهارة و أترك ما قدمه قبل ذلك فيما يتعلق بالتوحيد و العدل و النبوة و الامامة لأن شرح ذلك يطول" .

و بعد أيها السادة العلماء فقد قضينا مع بيان الطوسى و قتاً طويلاً و لكنه ممتع ، و فى هذا الوقت الطويل لم نقدر أن نلم إلا ببعض جوانب الموضوع الذى ادعينا أننا كتبنا فيه ، و الحقيقة أننا لم نكتب موضوعاً و لم نؤلف بحثاً لكننا أشرنا إلى ناحية منسية عند الفقيه الأكبر، و لا نشك فى أن هذه المقالة قد لاقت استغراباً منكم و أثارت الدهشة و التساؤلات عندكم ، و نعلم أن هذا الإستغراب و الدهشة و التاؤلات جميعها متأتية من أن فقيهاً متكلماً و أصولياً محدثاً و مفسراً كيف صح له أن يكون أديباً بيانياً و شاعراً روت له كتب السير و التراجم شعراً حلواً طيباً ، فما فى ذلك من عجب و لا دهشة إذا علمنا أن الطوسى كان نادرة الزمان ذكاءً و نباهةً و كنزاً عجيباً من الفطنة و الاستعداد وطاقةً لا تحدّ من التلقى و الأخذ و العطاء معاً ، و فى كنوزنا القديمة لا تزال جوانب كثيرة غير معروفة و لامسوسة لوجددت لأحيت كل آمالنا و بعثت فينا مروءة المتعلم و صفاء المعلم و رياضة المؤلف و حكمة الحكيم و نبوغ الفيلسوف و الأديب و سعة الشاعر كما بعثت كل هذه الصفات فى أوائلنا و أسلافنا .